من مسلسل الهجوم على الإسلام من أبنائه

أستاذ جامعى عربى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا

الثورة الإسلامية

داخل المحيط الذى ظهرت فيه

د. محمد عبدالحى شعبان

ترجمة وتفنيد د. إبراهيم عوض

مقدمة

تضم الصفحات التالية ترجمة للفصل الأول من الجزء الأول من كتاب «Islamic History . A new Interpretation» (ط. جامعة كمبردج / ١٩٨٠م) للدكتور محمد عبدالحى شعبان ، الذى كان يشتغل بجامعة إكستر البريطانية ، يعقبها ردّ على هذا الفصل بيّنت فيه ما يعجّ به من خبط وخلط ومزاعم فاسدة وتنكب للمنهج العلمى ، مدحضا كل ذلك بالمنطق السليم والأدلة الموثقة .

ولعل القارىء المسلم الذى لايعرف دخائل الأمور يستغرب كيف تقوم مطبعة عريقة كمطبعة جامعة كمبريدج بنشر هذا الكتاب رغم مابينتُه هنا من فكر الكاتب المتهافت الملتوى ومنهجه المضطرب المنحرف . لكن لاينبغى الاستغراب ، فمادام الهدف هو محاربة الإسلام وكتابه ونبيه فالعفاء على المنهج العلمى فى البحث ، وعلى المنطق السليم فى التفكير والاستنتاج ، وعلى احترام حقائق التاريخ وعقول القراء .

على أننى لابد أن ألفت نظر القارىء إلى أن تلك الدوائر المعادية للإسلام لم يقتصر دورها على طبع هذا الكتاب فى مطبعة جامعة

كمبريدج ، بل كانت وراء الكاتب منذ بداية تفكيره فى تأليف كتابه : تشجّعه ، وتقترح عليه التغييرات المطلوبة فى أفكاره لتكون أكثر معاداة للإسلام ، وتعيد صياغة أسلوبه الضعيف المليء بالأخطاء حتى لاينفر القارىء منه وينصرف عن القراءة ... وغير ذلك مما ذكره الكاتب بنفسه فى مقدمة الجزء الأول من كتابه . والله المستعان .

« الثورة الإسلامية داخل المحيط الذي ظهرت فيه »

د. محمد عبدالحي شعبان

ترجمة د. إبراهيم عوض

إن من الصعب أن يكتب الإنسان كتابة موضوعية عن ظهور الإسلام أو أى دين آخر ، إذ إننا إذا تركنا المعتقدات الشخصية جانبا فإن المؤرخ يواجهه عادة قدر كبير من الغموض حول أصول الدين الذى هو بصدده . ذلك أنه إذا بقيت أية معلومات متعلقة بالمراحل الأولى للدين فإنها في معظم الحالات يعتريها التلوين إلى حد كبير ، وكذلك المبالغة في غالب الأحوال ، ولهذا يصعب فرز الحقائق عن الخرافات . والإسلام ، في هذا ، أحسن حظا من النصرانية ، من حيث إن عندنا على الأقل معلومات أكثر عن مؤسسه . ومع ذلك فإن المادة المتاحة لنا عن الوضع في الجزيرة العربية في ذلك الوقت هى مجرد فتات متناثر يبعث على الضيق ، إذ لا يسمح لنا بالفهم الكامل لتاريخ تلك الحقبة . لقد كُتِب الكثيرُ حول حياة محمد ومهمته ، ودُقِّق النظر تدقيقا فى كل تفصيلة تتعلق به وحُلِّلت تحليلا كاملا لدرجة أننا الآن بوجه عام مطمئنون إلى الحقائق الأساسية المتصلة بما قام به من

أعمال . ومع ذلك فإن هذه الحقائق لاتفسر وحدها كل تلك الأعمال ولاتسهّل فهم دوافعه . وبطبيعة الحال فإن أى تحليل إنما هو عرضة للتأثر بالتفسير الذى يضفيه المؤرخ على هذا العمل ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يختلف المؤرخون في هذا التفسير . إن المشكلة هى أنه بسبب ندرة المعلومات المتعلقة ببقية الجزيرة العربية فإن هذه التفسيرات هى في الغالب تخمينات أكثر منها تحليلات تاريخية موثقة توثيقا كافيا . وهكذا فقد كان إ. أ. بيلاييف معتمدا على حجج فردريك إنجلز أكثر من اعتماده على المراجع التى نعرفها عندما كتب قائلا : « وهكذا ظهر الإسلام في الجزيرة العربية ديناً جديدا يعكس تغيرات ضخمة في المجتمع العربى ، ألا وهى التفاوت في الملكية والرق وتطور المبادلات . إن ظهور هذا الدين مرجعه إلى نشوء نظام قائم على الرق داخل مجتمع بدائى في طريقه إلى الانهيار » (١) . إن مما لاشك فيه أنه دين جديد ، كما أنه مما لاشك فيه أيضا وجود تغيرات ضخمة في المجتمع العربى ، إلا أن بقية

1- E. A. Belayev , *Arabs , Islam and the Arab Caliphate* , tr. Adolphe Gouervitch , London , 1969 , p. 115 .

الدعوى لاتستند إلى أى دليل بالغا مابلغت تفاهته في المراجع التى بين أيدينا . ومن ناحية أخرى فقد كتب مونتجرى وات أن « الوضع الأساسى الذى أحاط بظهور الإسلام هو التناقض والصراع بين النظرة والمواقف المكية البدوية والبيئة المادية (أو الاقتصادية) الجديدة التى وُجدت فيها » . ويمضى وات قائلا : « لقد صاحب الانهيار الأخلاقىَّ وفَشَلَ الرأى العام انحطاطٌ في الحياة الدينية لدى المكيين . إن أخلاق البادية التقليدية قد أصبحت غير ذات قيمة فى مكة » (١) . إن في منطق وات كثيرا من الوجاهة ، بيد أنه للأسف قد اقتصر على دراسة مكة والمدينة ومناقشة مايتعلق بهما . إنه لم يعط لدراسة الظروف فى الجزيرة العربية ككلٍّ ما تستحقه من الانتباه ، رغم أن مثل هذه الدراسة أمر أساسى إذا كان لنا أن نفهم الظروف التى كانت سائدة فى مكة ونشاط محمد فيها وفى المدينة معا . إلا أن هذه مهمة شديدة الصعوبة ، ومن الحق كذلك القول إن عدم كفاية الأبحاث فى هذا المجال هو فى الأساس غلطة الباحثين السابقين . وإنه لمن حسن

1- W. Montgomery Watt , *Muhammad , prophet and Statesman* , London , 1961 , pp. 48 - 51 .

الحظ أن هذه المسائل أصبحت الآن تحظى باهتمام أكبر ، كما أنه من المفيد أن أصبح عندنا تلك الدراسة التى قام بها م. ج. كستر والتى كنا في مسيس الحاجة إليها (١) . لقد بدأت تتضح صورة العلاقات الشديدة التعقيد في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وقد كانت هذه العلاقات تربط أهل مكة مع سكان معظم سائر الجزيرة من بدو وحضر على السواء فى التجارة التى كانت آخذة فى الاتساع ، وكانت تجارة عالمية واسعة النطاق شملت القوتين العظميين في ذلك الوقت ، وهما الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية . وبطبيعة الحال كانت لمصالحهما آثار بعيدة المدى في الجزيرة العربية ذاتها . وقد كان الساسانيون أميل إلى اللجوء إلى القوة لتأمين مصالحهم في هذه

١- لكستر المقالات التالية : « Mecca and Tamim » في « Journal of Economic and Social History » / ١٩٦٥ م / ص ١١٣ - ١٦٣ ، و « The Market of the Prophet » فى نفس المجلة / ١٩٦٥ م / ٢٧٢ - ٢٧٦ ، و « Al - Hira » في مجلة «Arabica» / مجلد ١١٥ / ١٩٦٨ م / ص ١٤٣ - ١٦٩ ، وهى مقالات جيدة التوثيق . وتجدر الإشارة إلى أنه مع شىء من التحوير فإن تفسيراته للظواهر التى بقيت حتى الآن بلا تفسير وكذلك رجوعه فى كل شىء إلى المراجع المعتمدة يشكلان الأساس لذلك التفسير الذى نقدمه فى هذا الكتاب .

التجارة . ومع أنهم قد احتلوا اليمن في الفترة من ٥٧٠ إلى ٥٧٥ م وبسطوا سيطرتهم على شاطئى الخليج الفارسى كليهما فإن بقية الجزيرة قد نجا من سلطانهم . لقد حاولوا استخدام تابعيهم من ملوك الحيرة على حدودهم الجنوبية الغربية ليخضعوا بالقوة قبائل الهضبة الوسطى بالجزيرة ، ولكن هذه السياسة لم تنجح إلا فى تعرية الضعف الذى كانت عليه مملكة الحيرة مما أدى إلى سقوطها . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يتزامن سقوط هذه المملكة مع بروز مكة في حلبة الثراء والقوة .

وربما كان البيزنطيون أكثر واقعية في سياستهم العربية . وبينما امتنعوا هم أنفسهم عن القيام بأية مغامرات عسكرية في الجزيرة العربية فقد كانوا يشاهدون ، وربما كانوا يشجعون ، محاولة الأحباش إخوانهم في الدين غزو اليمن في ٥٢٥ م ثم الهجوم على مكة نفسها بعد ذلك بقليل لكى يحكموا سيطرتهم على طريق اليمن - سورية . وبعد فشل هذه المحاولة اكتفى البيزنطيون بالمناورات السياسية التى كانت تهدف إلى إقامة نظام تابع لهم فى مكة يشبه نظام مملكة الغساسنة في جنوب سورية . وعندما فشل ذلك الأمر كانت سعادتهم

لاتوصف حين أخذوا يتفاوضون مع أهل مكة من أجل ضمان تدفق التجارة .

إن من المستحيل أن نفكر في مكة بعيدا عن التجارة ، فقد كان مسوّغ وجودها هو هذه التجارة . لقد أُسِّست في البداية كمركز تجارى محلى حول مزار دينى . ومن حيث إنها حرم مقدس فقد كان زوارها آمنين على حياتهم ، وكان يُطْلَب إليهم أن يوقفوا خصوماتهم ماداموا فيها . ولضمان تحقق هذا الأمان فى الطريق المؤدى إليها فقد أنشىء نظام متطور للأشهر الحُرُم والحج والشعائر الدينية بالاتفاق مع القبائل المحيطة بها . ولقد أدى نجاح هذا النظام إلى توسع التجارة ، كما أدى هذا بدوره إلى قيام أسواق جديدة . وقد امتدت فكرة « الحَرَم » لتشمل تلك الأسواق التى كانت تُعْقَد أيضا فى الأشهر الحُرُم كما هو الحال مع الحجّ (١) . وعلى هذا النحو فمنذ البداية الأولى لم يكن الدين منفصلا عن التجارة ، ولم يكن النجاح في أحدهما إلا

١- هذه الفكرة قد أبرزها بشكل وافٍ ر. ب . سرجنت فى مقاله *Haram and Hawtah, The Sacred Enclave in Arabia*, Melanges Taha Husain , Cairo , 1962 , pp. 41 - 42 .

ليساعد على التعجيل بالنجاح فى الآخر . وفى ظروف كهذه وبرغم أنه كان لكل قبيلة إلهها الخاص فقد كان من الحتمى أن يكون للحرم المكى شىء من التميز بالنسبة للقبائل المستفيدة من نظام مكة التجارى . وللتعبير عن ذلك الأمر كانت القبائل المشتركة فى هذا النظام تضع رموزاً لآلهتها فى الكعبة ، التى هى مزار مكة . كذلك كان من الحتمى أن تحتل الآلهة المكية مكانة أعلى فى بيت الآلهة ذاك . ومن المؤكد أن الله كان أحد الآلهة المكية ، بل ربما كان واحدا من أقدمها ، برغم أنه قبل عصر محمد كانت قد تقدمته في المكانة آلهة أخرى . لقد كانت مكة في النصف الأول من القرن السادس ماضية في طريق الازدهار ، وكانت تجارتها المحلية تعتمد على نفوذها الدينى ، ولكن ذلك فى حد ذاته كان جزءا من نظامها التجارى .

وقد حدث التغير الحقيقى في وضع مكة مع تحول تجارتها من محلية إلى دولية . ولقد اتضح الآن أن ذلك كان من عمل هاشم جَدّ محمد البعيد ، الذى عاش في أواسط القرن السادس . وإنه لما يشهد لتجار مكة بالذكاء والحصافة أنهم سرعان ما أبصروا الفراغ الذى كان موجودا في التجارة الدولية في عصرهم ، بله الإسراع في ملئه . ولقد

كان صراع القوتين العظميين من أجل السيطرة على طرق التجارة ومراكزها في الجزيرة العربية يقترب من نهايته . وكانت مكة ، بوصفها مركزا تجاريا آخذاً في الاتساع وتقع عند ملتقى الطرق التجارية الرئيسية ، فى أفضل وضع للقيام بهذه التجارة . لقد كانت تملك الخبرة والاتصالات ، وكذلك كان لديها فيما يبدو فائض من التجارة الداخلية يمكن تصريفه في الأسواق الأجنبية ويمكنه أيضا إلى حد كبير توفير رأس المال المطلوب . وفوق كل شيء كان لديها نظام موجود بالفعل يمكن توسيعه ليضم الجزء الأكبر من التجارة الدولية . وقد وفر هاشم الظروف اللازمة لذلك التوسع ، فقد حصل من الإمبراطور البيزنطى لتجار مكة وبضائعهم على حق التجول الآمن في بلاد الشام عند زيارتهم لها . وربما كان الإمبراطور سعيدا أن أعطاهم ذلك الأمان الذى لم يكن يكلفه شيئا ، والذى بعث على الأمل فى أن يبسط نفوذه على الأقل على بعض الشخصيات القيادية في الجزيرة العربية . وقد تم الحصول على مثل هذا الأمان أيضا من عواهل الفرس والحبشة (١) .

1- M. J. Kister , " *Mecca and Tamim* " , Journal and Social History of the Orient , 1965 , pp. 116 - 17 .

وهنا استدار هاشم إلى الجانب الأصعب في الصفقة ، وهو الجانب العربى . لقد كان أمان القوافل المكية يعتمد على موقف القبائل المختلفة التى لم يكن بعضها مشاركا في النظام المكى المحلى . وقد عرض عليهم هاشم اقتراحا يضمن لهم سوقاً لمنتوجاتهم وربحاً لبضائعهم دون أن يكلّفهم ذلك شيئا . لقد كان الأمر ببساطة أن يأخذ تجار مكة هذه البضائع معهم إلى سورية ، وعند عودتهم يدفعون لهم رؤوس أموالهم وأرباحها . وفى مقابل ذلك كان على تلك القبائل أن تضمن أمن القبائل المكية أثناء اجتيازها بلادها . وربما كان ذلك هو الشكل الأصلى للإيلاف ، أو اتفاق الأمان ، الذى كان مطبقا على نطاق جدّ واسع . أما الصورة الأخرى من الإيلاف فكانت تتمثل في دفع ضريبة من جانب القبائل التى تريد الاشتراك فى التجارة دون أن يكون فى مستطاعها ضمان أمن القوافل المكية فى أرضيها . وكان هاشم يجمع تلك الضرائب كى يتمكن من تنظيم حماية القوافل (١) .
أما بالنسبة لتلك القبائل التى كانت مشتركة بالفعل فى تجارة مكة المحلية وتعترف من ثم بحَرَمِها المقدس وبأشهرها الحُرُم والتى تعهدت

١- المرجع السابق / ١١٧ - ١٢٠

بحماية كل ذلك فقد كان الوضع أبسط كثيرا . لقد كان توسع التجارة المكية سببا آخر يجعلهم يحترمون هذه الاتفاقيات . لقد سُمُّوا « الحُمْس » ، وهى كلمة تعنى الشجاعة والصلابة في الدين وكذلك نذر النفس لحرم مقدس . ومن هنا أطلق على مكة « دار الحُمْس » ، وسميت الكعبة بـ « الحمساء » . وقد ضم هذا الحلف ، حلف الحُمْس ، قريشا ، وهم أهل مكة ، وكثيرا غيرهم من القبائل التى كانت تعيش فى مناطق مختلفة من الجزيرة دون أن يكون بينها أية صلات قبلية . وأهم من ذلك أن هذه القبائل كانت تسيطر على كثير من الطرق التجارية فى أنحاء الجزيرة (١) . كما أنهم كانوا يطلقون على أنفسهم : « أهل الله » (٢) . وعلى ذلك فالانتماء إلى « الحُمْس » كان يعنى ويجسّد الاعتراف بذلك الإله الواحد، الذى ربما كان هو الإله الشخصى لهاشم وأهله الأقربين (٣).

١- السابق / ص ١٣٢ - ١٣٨ .

٢- السابق / ١٣٩ .

٣- إن وجود اسم « عبدالله » بين ذرية هاشم قبل الإسلام أمر ذو مغزى ، وبخاصة أنه لم يكن لهذا الاسم أى وجود بين أسلافه .

ولكى تُقَوِّى قريش تحالفاتِ الحمس فقد أعطت القبائلَ الأخرى نصيبا من نفوذها تبعا لقوة كل منها والخدمات التى تقدمها لـ « الكومنولث المكّىّ » . وقد أثبت كستر ، بما لايدع مجالاً للشك ، العلاقة الوثيقة بين قريش وقبائل تميم ، التى « شملها أيضا التكوين السياسى فى مكة » (١) . وقد منحت قريش بعض زعماء هذه القبائل شيئا من السلطة فى الأسواق التى تقام فى بلادها ، بل والإشراف كذلك على شعائر الحج . ومما يذهب إليه كستر أيضا ويبدو مقبولا أن أفرادا من قبيلة تميم كانوا يشتركون فى الميلشيا القبائلية التى كانت مهمتها حماية مكة ذاتها وكذلك أسواقها (٢) . وبطبيعة الحال فقد استتبعت هذه المشاركة في المسؤولية مشاركة مثلها فى المكاسب التى يدرّها المشروع كله . ومن المنطقى أيضا أن قريشًا كانت تطالب القبائل المشارِكة بتحمل نصيبها من المصروفات التى يستلزمها الحفاظ على هذا النظام . وكانت هذه المنظمة القائمة على مبدإ المساواة هى الأساس فى بروز مكة إلى ميدان الثروة والقوة ،

١- لمزيد من التفصيل انظر Kister , " Mecca and Tamim " , p. 131

٢- السابق / ١٤٣ .

اللتين كان يشاركها فيهما حلفاؤها .

وفى مكة نفسها أقدم هاشم أيضا على خطوة ثورية أخرى تتمثل فى إعطاء الفقير نصيبا من الأرباح أو ربما فى مقابل الاشتراك فى رأس المال ببعض المبالغ الصغيرة الخاصة بالأقارب الفقراء (١) . ومن هنا فقد كان ذلك مشروعا مشتركا قائما على التعاون بين من يعنيهم الأمر كلهم . وهذا التعاون ، بالإضافة إلى تلك الشبكة من التحالفات والاتفاقيات المنظمة على أحسن وجه ، قد نجح نجاحا طيبا وزاد بالتأكيد من ثروة كل المساهمين . بل لقد كان نجاحه أكبر من أن يستطيع الاستمرار والصمود لضغوط المنافسة التى كانت تهدف إلى الحصول على نصيب أكبر من التجارة التى كانت آخذة فى الاتساع . وفى الوقت الذى ظهر فيه محمد كان هناك اتجاه فى مكة نحو تركيز الثروة فى عدد من الأيدى أقل ، مع استبعاد البطون الفقيرة . وقد أشار البعض إلى أن تكوُّن الأحلاف المحدودة داخل بطون قريش كان فى الواقع محاولة لاحتكار التجارة فى هذا الاتجاه أو

١- السابق / ١٢٣ .

ذاك (١) .

أما فى خارج مكة فقد هرولت أيضا القبائل الأعضاء فى الكومنولث لزيادة مكافآتهم أو تخفيض ما يدفعونه لقريش . وإن من المستطاع إرجاع كثير من الحروب ، كحرب الفجار ، إلى محاولات بعض القبائل الواقعة على الطرق التجارية إلى زيادة سيطرتهم على الأرضين التابعة لغيرهم من القبائل (٢) . وفضلا عن ذلك ، فإن اتساع التجارة قد ساعدهم على قيام عدد من المدن ذات الأسواق ، مما زاد من ثروة الجماعات المستقرة وقُوّتها على حساب القبائل البادية حولها . وكانت النتيجة أن نشأت حالة من التوتر بين القبائل المستقرة والقبائل المتبدية ، رغم أنها قد تكون جميعا منتمية إلى أصل قبلى واحد (٣) . وبلا ريب فقد شكلت هذه التوترات المتزايدة

1- W. Montgomery Watt , *Muhammad at Mecca* , Oxford , 1953 , p. 15.

٢- المرجع السابق / ١٤ ، وكذلك مقال كستر بعنوان : Al-Hira , Arabica , Vol 15, 1968 , p. 154.

٣- لم يكن اتجاه الجماعات المستقرة فى المدن إلى السيطرة على القبائل البادية من حولهم مقصوراً على مكة والمدينة والطائف ، بل وُجِد أيضا فى دومة الجندل وهجر ، وكان هدفا رئيسيا لمسيلمة نبىّ بنى حنيفة .

داخل النظام تهديدا لشبكة التجارة . ولابد أن بعيدى النظر من القرشيين قد تنبهوا للأخطار الكامنة فى مثل هذا الموقف المتفجر . ومع ذلك فإن أحدا لم يتقدم بأى اقتراح عن الكيفية التى يمكن بها إعادة التوازن فى الحلف أو يحذر من الكارثة المحتومة لمكة وتجارتها .. لا أحد ، اللهم إلا محمد .

لقد كان هو أحد المشاركين النشطين في هذه التجارة . ولا يمكن أن يكون قد فاته أن قريش ليست وحدها التى تعتمد في معيشتها على ازدهارها بل هى وقبائل أخرى كثيرة . وليس من المعقول أن يكون قد سره هذا ، بل المعقول أن يكون قد اقترح بعض الوسائل التى تكفل المحافظة عليها وتدعيمها . ولابد أنه ، بوصفه طرفا فى تحالف « الحُمْس » ، قد تحقق من الانهيار المنتظر ، واقترح أساساً أعدل للحفاظ عليها (١) . لقد كان لمكة حَرَم مقدس متميز ذو صلة وثيقة بنشاطاتها التجارية . وكان لابد لأية محاولة لإصلاح النظام القائم أو الثورة عليه أن تكون موجهة ضد التجارة والدين جميعا . إن يقين محمد الدينى وإيمانه المخلص برسالته السماوية هما مما لايحتاج

1- Kister , *Mecca and Tamim* , p. 139 , especially nn. 9 and 10 .

إلى إثبات ، وإن لم يكن هذا هو المكان الملائم لإصدار حكم عقيدى على نبوته أو الدين الذى أسسه . ومن وجهة نظر المؤرخ فإن ثورته وأسلوبه فى الحكم ينبغى أن يُفَسَّرا ويُفْهَما فى إطار البيئة التى ينتمى إليها . ومادام الكلام عن مكة فهذا معناه التجارة . وإن أية محاولة لدراسة أنشطة محمد فى مكة والجزيرة العربية دون الالتفات إلى مسألة التجارة لتساوى بالضبط دراسة الكويت أو الجزيرة الآن دون أخذ البترول فى الاعتبار . ولم يحدث أن دعا محمد أتباعه ولو مرة إلى إهمال دنياهم ، بل كلّ ماحثهم عليه هو الاعتدال ، مذكّرا إياهم بأن عليهم أن يعملوا فى الوقت ذاته على النجاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة معا . ولسنا بحاجة إلى التدليل على أن الإسلام يشجع التجارة ويعدها مهنة شريفة ، إنما الذى نحن محتاجون إليه هو أن نشرح خطط محمد التى كانت تهدف إلى استمرار التجارة فى عصره وازدهارها .

وفى بداية الأمر فقد عزم محمد على القيام بثورة من داخل النظام ذاته ، فكان دائم الإلحاح على أنه ينبغى على قريش أن ترتب أمورها ، وعلى أن السعى المحموم وراء تكديس الأموال مع حرمان

الضعفاء وعدم الالتفات إلى الفقراء فى مكة هو الشرّ بعينه ، وأن نجاة أهل بلده من القرشيين إنما تكمن فى رعايتهم للفقراء من أقاربهم والحرص على مصلحة اليتامى وإكرام المساكين منهم . إن هذا التعاون بين الأغنياء والفقراء هو المبدأ الأساسى فى دعوة محمد على مدار حياته كلها ، مثلما أن الحب هو جوهر رسالة المسيح . وكان محمد يرى أنه إذا تمّ هذا التعاون داخل مكة نفسها فسوف يكون من السهل تعميمه بين أفراد الكومنولث أجمعين . ومع ذلك فإن هذا الأمر كان يستلزم من أغنياء قريش بعض التضحيات ، وهو ما لم يقبلوه . ورغم أنه كان بين أقدم أتباعه بعض الأغنياء كعثمان بن عفان فإنه لم يصغ إلى دعوته إلا القليل جدا من أهل مكة . وبذلك كتب الفشل على محاولته القيام بثورة من الداخل . وقد ظل طوال ثلاثة عشر عاما يدعو أهل بلده من قريش على رغم وجود عقبات كأداء . ثم قامت حرب اقتصادية بين أتباعه وسائر قريش ، وأعلن أعداؤه الأغنياء مقاطعة أهله اقتصاديا . وقد حاول ، عن طريق إرسال بعض أتباعه إلى الحبشة ، أن يقيم معها علاقات تجارية مستقلة ، ولكن سرعان ما أحبطت قريش هذا المسعى (١) .

1- Watt , *Muhammad at Mecca* , pp. 114 - 15 .

وفى النهاية شرع محمد يبحث عن تعضيد خارجى يتحدى به مكة . وممّا له دلالته أنه اتجه إلى ثقيف بالطائف ، وهم المشاركون الصغار فى التجارة المكية . ولابد أنه تحقق من أن تعاليمه من الممكن أن تحظى بقبول أكبر بين المجتمعات المستقرة .

ومع ذلك فقد كان اختياره للطائف أمرا مفاجئا ، اللهم إلا إذا نظرنا إليه على أنه خطوة دفع إليها اليأس ، إذ ليس من المعقول أن يكون قد توقع فعلا أن تعادى ثقيف قريشًا من أجله . وقد كُتِبَ على رحلته هذه أن تنتهى بمطاردة الرعاع له وقذفهم إياه بالحجارة . كما دفعه اليأس إلى محاولة الحصول على تعضيد بين القبائل التى كانت تأتى إلى مكة فى موسم الحج ، ولكن دونما فائدة ، إذ لم يشعر أحد بأنه من القوة بحيث يمكنه تحدى قوة قريش وحلفائها .

وفى هذه الأثناء كان موقف محمد فى مكة يتدهور بسرعة شديدة ، بل إن حياته نفسها كانت فى خطر . ولم يكن أمامه من خيار إلا الهجرة . وقد جاءت النجدة من حيث لم تكن متوقعة على الإطلاق .. من المدينة . ولابد أن نعرف أن أهل المدينة لم يكونوا من المشاركين النشطين فى تجارة مكة أو فى تحالفاتها . وعلاوة على

ذلك فقد كان للمدينة مشاكلها التى تنفرد بها ، إذ لم يكن ثمة تجانس بين أهلها ، كما ساد التوتر بين السكان اليهود وغيرهم . وكان هناك تنافس بين الأخيرين ، وهم الأوس والخزرج ، من أجل السيطرة على المدينة ومصادر الثروة فيها ، وكانت فى أيدى اليهود . وفى ضوء العلاقة الوثيقة التى كانت بين يهود المدينة والجماعات اليهودية الأخرى فى الجزيرة العربية فإن من المعقول القول بأنه كانت توجد شبكة للتجارة فى ذلك الوقت (١) . وهذا يفسّر لنا غياب أية عمليات على نطاق واسع بين مكة والمدينة . وقد كان أهل المدينة بالتأكيد على وعى بالوضع فى مكة والمعارضة التى تواجه محمداً هناك ، ومع ذلك فقد قرروا اتخاذ موقف العداوة منها ، وهو موقف ينذر بالخطر . وفوق ذلك فإنهم من أجل أن يبسطوا حمايتهم على أحد القرشيين ضد قريش نفسها قد دعوا محمدا إلى بلدهم . ولكى تزداد الأمور تعقيدا فقد وضعوا محمدا فى مركز متميز ، إذ جعلوه حَكَماً بينهم .

١- وقد امتدت هذه الصلات شمالا حتى وصلت إلى أذرعات فى الشام ، وجنوبا إلى نجران على أقل تقدير .



وفى الواقع لم يدخل فى الدين الجديد من أهل المدينة آنذاك إلا أقلية جد ضئيلة . ورغم ذلك فقد استطاعت هذه الأقلية الضئيلة أن تقنع سائر أهل المدينة بأن يتخذوا موقفا من شأنه أن يثير غضب قريش القوية . كذلك لابد أن نتذكر أن هذا التصرف قد قوبل من جانب اليهود بفتور ، وعارضه آخرون معارضة صريحة . ومن هنا فإننا مضطرون إلى أن نستمر فى البحث عن السبب الذى دعا أهل المدينة إلى هذا التصرف غير المتوقع .

لقد كانت التجارة هى العامل الرئيسى فى السياسة العربية آنذاك ، وليس من المعقول أن نفترض أن أهل المدينة لم يضعوا هذا فى حُسْبانهم ، وبخاصة أن مكة كانت داخلة فى الأمر . ومما له مغزاه أن أهل المدينة لم يستضيفوا محمدا وحده بل استضافوا معه سبعين من أتباعه المكيين وأخذوا على عاتقهم توفير كل مايحتاجونه فى معيشتهم مؤمّنين بهذا الخبرة المكية المطلوبة فى مقابل ماكانوا يدفعونه لهم . وكان محمد ، بوصفه مشاركا نشطا فى تجارة مكة طوال الشطر الأكبر من حياته ، قد اكتسب لقب « الأمين » ، وذلك عن طريق إدراته لمصالح الأغنياء من قريش . وقد كان نجاحه فى

ذلك عظيما ، مما عوضه عن عدم وجود رأس مال له فى بداية حياته (١) . وفوق هذا فقد كان هو شخصيا أحد الأعضاء فى النظام التحالفى المكّىّ ، وكان على معرفة واسعة بطريقة سيره . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت خبرته فى ميدان التجارة وكذلك مقدرته على التنظيم أشياء لاتقدر بمال حتى فى مكة نفسها (٢) . ولابد أن أهل المدينة كانوا يقدرون هذه المواهب ، ولابد أنهم قد اتفقوا كذلك معه على أن يعطوه السلطة الكافية التى يستطيع بها أن يقيم كومنولثا مدينيا . وقد أرست المفاوضات الطويلة الصعبة التى سبقت انتقاله إلى المدينة والتى انتهت بكتابة مايسمى بـ « صحيفة المدينة » أساس الكومنولث الجديد المعروف باسم « الأمة » . وقد شمل هذا الكومنولث كل الجماعات التى وافقت على التعاون كأساس للمشروع الجديد ، وتم

١- كانت خديجة زوجته الأولى واحدة من أوائل من أشرف على تجارتهم من أهل مكة قبل زواجه منها .

٢- ولنأخذ على سبيل المثال الأسلوب الذى حل به مشكلة نقل الحجر الأسود ، مما لاحاجة بنا إلى الإفاضة فيه نظرا لشهرته الواسعة .

الاتفاق على ذلك بين كل طوائف أهل المدينة وجميع المهاجرين القرشيين إليها . وإن أهم شيء فى الأمر أنه لم يكن لزاما على أعضاء الكومنولث أن يدخلوا فى الدين الجديد ، بل كل ما عليهم هو أن يعترفوا بالسلطة الخاصة التى أُعْطِيَت لمحمد . لقد كانوا متعودين على الخضوع لسلطة المحكَّمين كجزء من التقاليد العربية ، لكن مسؤولية محمد كانت أكبر من مجرد الفصل فى الخصومات الصغيرة ، وبالتالى فقد طالب بأن تكون سلطاته أوسع . وقد تمّ إقناع اليهود ، وهم أغنى أفراد الأمة ، ودخلوا فى الاتفاقية فيما نظن ساخطين . ومما هو جدير بالذكر أنه قد نصَّ بالنسبة لهذه « الأمة » الجديدة على بعض الشروط التى تكفل لها النمو باستمرار ، وذلك بالسماح لأية جماعة جديدة بالدخول فيها مادامت تقبل أساس التعاون الذى قامت عليه وكذلك السلطة المخوَّلة لمحمد . ورغم أن « الصحيفة » لم تشر إلى أية اتفاقيات تجارية ، ربما لأن ذلك كان أمرا مسلما به بين الأطراف الموقعة عليها ، فقد نصت على المعاهدات التى قد يتم التوقيع عليها مع الجماعات الخارجية . وإن إعلان محمد للمدينة على أنها « حَرَم » لهو مؤشر قوى على أنه قد

أسس مركزا تجاريا جديدا (١) .

وبطبيعة الحال فقد كانت قريش تراقب باهتمامٍ هذه النشاطات الواقعة على مقربة منها . ومن المحتمل أنهم كانوا على استعداد للتسامح معها لو أن خصومهم الجدد اقتصروا على الممارسات التجارية العادية . إلا أن الإغارة على القوافل التجارية فى الجزيرة العربية كانت أحد الأخطار المعروفة . ورغم أنه كانت تُتَّخَذ كل الاحتياطات الممكنة لضمان سلامتها فقد كانت الإغارة أمرا لابد منه إلا إذا تمت اتفاقات خاصة مع القبائل الواقعة على طول الطرق التجارية . ومثل هذه الاتفاقية لم يكن لها وجود بين مكة والمدينة قبل هجرة محمد . وعندما بدأ مهاجمة القوافل المكية كان هذا إعلانا عن رغبته فى التوصل إلى اتفاقية كهذه معهم ، وتهديدا حقيقيا لتجارتهم ولوضعهم كله . وقد تحقق المكّيون من أن شروط محمد فى هذه الاتفاقية ستكون شروطا غير مقبولة ، ثم ما لبث الصدام الاقتصادى المحدود أن استحال إلى حرب حقيقية . وكان أهل مكة عازمين على القضاء

١- انظـــر W. Montgomery Watt , Muhammad at Medina , Oxford , 1956 , pp. 221-5 ، وذلك من أجل الترجمة الإنجليزية لهذه « الصحيفة » .

على أى خطر يهدد قوتهم الاقتصادية ، التى سرعان ماتضررت من غارات أهل المدينة على الطريق الذى يصلهم بأهم أسواقهم فى الشمال وقد أدى هذا الوضع إلى نشوء توترات داخل المدينة وخارجها . وقد بلغت هذه التوترات درجة عالية داخل « الأمة » الجديدة . فمن ناحية ، وجد أولئك الأشخاص الذين لم يوافقوا فى البداية على الخطة دليلا على سلامة موقفهم فى الحرب التى اشتعلت بينهم وبين مكة ، والتى كانت أحد العوامل القوية والمدمرة وراء توقف فيضان التجارة نفسها التى كانوا يهدفون إلى الاستيلاء عليها . ومن ناحية أخرى ، كان كثير من أهل المدينة غير واثقين من قدرتهم عى مواجهة أى هجوم كامل من قِبَل مكة وحلفائها . ومن جهة ثالثة ، رأى يهود المدينة أن تدهور العلاقات مع أهل مكة سوف يؤثر على التجارة المزدهرة التى كان بعض حلفاء مكة حلفاء فيها ، كالطائف مثلا حيث كان لهم مركز تجارى يهودى هنالك (١) . ثم إن محمدا قد تنبه إلى أنه ، بإغارته على تجارة مكة ، كان يقوّى دون قصد منه شبكة التجارة اليهودية . كذلك سرعان ما تبين له أن دخول اليهود أعضاء

١- البلاذرى / فتوح البلدان / ط . دى خويه / ليدن / ١٨٦٦ م / ٥٦ .

فى « الأمة » لايتواءم مع مصالحها الأساسية ، ولذا كان لابد من إخراجهم منها . ومما يلفت النظر أن أول من طُرِد من اليهود هم بنو قينقاع ، الذين كانوا أنشط المشاركين فى تجارة المدينة (١) . ولكنهم عندما لحقوا بإخوانهم فى الدين فى شمال الحجاز لم تتوقف التجارة اليهودية ، إلى جانب أنهم قد وقفوا مع أعداء محمد ضده .

وأخيرا ، فقد كان على محمد أن يقوم بأعنف عمل طول حياته كلها لكى يقضى مرة واحدة وإلى الأبد على الحلقة اليهودية فى المدينة . وعلى هذا فقد تم تذبيح آخر قبيلة يهودية متبقية فى المدينة عن بكرة أبيهم ، وكان مصيرهم هذا درسا عنيفا لأعدائه داخل المدينة وخارجها .

وفى هذه الأثناء كانت التجارة المكية قد توقفت تقريبا ، وأخذ المكّيون يركّزون جهودهم على هزيمة محمد كى يمكنهم استئنافها فى أمان ، فعبأوا كل حلفائهم وشنوا أضخم هجوم حتى ذلك الوقت على المدينة . وكان فشل محاولتهم الأخيرة هذه فى غزوة الخندق هو

١- انظر فى هذا الصراع : M. Kister , The Market of the prophet , Journal of Economic and Social History of the Orient , 1965 , pp. 272 - 6 .

انتصار محمد الحقيقى . وأخذت مكانة مكة تأفل ، ولم يكن قبولها لشروط محمد إلا مسألة وقت . ومع هذا فقد كان محمد نفسه على وعى بالأهمية الكبيرة لاتصالات أهل مكة التجارية ومهارتهم الممتازة فى هذا الصدد . ومن أجل الاستفادة من هذه الإمكانات فى استئناف النشاط التجارى الذى توقف كان لابد أن تسقط مكة فى يده سالمة وألاَّ يمسّ أهلَها أيّةُ إهانة . وقد كُلِّلت محاولاته لكسب خصومه المضعضعين بالنجاح، ورُحِّب بهم كأعضاء محترمين داخل « الأمة » .

ومع أن استسلام مكة كان بالتأكيد نصرا عظيما لمحمد فإنه لم يكن آخر المشاكل التى اعترضته ، فسرعان ماوجد نفسه فى موقف يبعث على السخرية ، إذ كان عليه أن يدافع عن قريش ضد أولئك الذين كانوا قبلا حلفاءها الحميمين ، والذين أفزعهم سقوط مكة فقرروا أن يشنوا هجومهم الأخير لينقذوا أنفسهم ، لكن الانتصار النهائى كان حليف محمد وقريش حلفائه الجدد (١) . وما إن انتشرت أخبار هذا الانتصار فى أرجاء الجزيرة حتى شرعت وفود

1- Watt , *Muhammad at Medina* , pp. 70 - 7.

القبائل القوية تصل إلى المدينة بغية عقد اتفاقيات . وليس غريبا أن تصبح شروطه حينئذ أقسى . ذلك أن الدخول فى الإسلام لم يكن فى البداية شرطا ضروريا للانتماء إلى « الأمة » ، أما الآن فلم يكن عليهم فقط قبول الإسلام بل ودفع الضريبة (الزكاة) أيضا له . ولم تكن هذه الضريبة إلا إحياء لتلك الضريبة القديمة التى كان على بعض القبائل أن يدفعوها إذا أرادوا المشاركة فى تجارة مكة (١) . وكانت قبيلة بنى حنيفة هى القبيلة الوحيدة ذات الشأن التى رفضت قبول هذين الشرطين ، إلا أنه لم يُتَّخذ بشأنها أى إجراء رغم ظهور نبىّ منافس فيها .

وكانت العداوات فى الجزيرة قد أوقفت التجارة تماما ، وكانت مسؤولية محمد أن يتخذ الإجراءات الكفيلة باستئنافها . كما كان عليه آنئذ أن يقنع الدولتين الكُبْرَيَيْن أنه مسيطر على طرق التجارة وأنه قادر على تأمينها ، فكان أن أرسل بعض الحملات على طول الطريق الشمالى لِيُرِى السلطات البيزنطية والقبائل العربية الموجودة على الحدود الشامية مدى قوته . لكن هذا الاستعراض للقوة لم يأت بأية

١- وهو ما أشرنا إليه من قبل عند الكلام عن هاشم ومشروعه التجارى .

نتيجة تذكر قبل وفاته . وفوق ذلك فقد كان ظهور أنبياء منافسين آخرين فى وسط الجزيرة واليمن مؤشرا على استمرار الاضطراب فى المنطقة ونذيرا سيئا بوقوع مزيد من القلاقل الخطيرة . ورغم أن محمدا فى أقل من عشر سنين قد نجح فى وضع الأساس اللازم لإقامة مركز تجارى كبير يتفوق على المراكز السابقة فى الجزيرة فلم يتح له الوقت الكافى لاستغلال هذا النجاح . ومع ذلك فإن النظام الذى أقامه والطاقات الجديدة التى أطلقها فى الجزيرة العربية قد قُدِّر لهما أن يصلا إلى مدى ما كان يخطر له ببال . لقد اضطر التراجع الاقتصادى المحتوم الذى أدت إليه أعمالُه العربَ إلى أن يستغلوا تلك الطاقات فى الإغارة على الأرضين المجاورة ، وفى أن تكون لهم ، بعد وفاته بوقت غير طويل وعلى غير قصد منهم ، إمبراطورية .

ولم يكن محمد فى أى شىء من أعماله مبدعاً ، وهو نفسه كثيرا ما أكد هذه المسألة . وحتى دينه لم يكن بالشىء الجديد . لقد كان يلح دائما على أن هذا الدين كان موجودا على الدوام وأنه لا يختلف فى شىء عن أديان الأنبياء السابقين بدءاً من إبراهيم . وكان كل ما يدعو إليه هو إعادة التطبيق السليم لمبادىء الحقيقة الخالدة ، مما

يضمن العدل والخلاص لأتباعه أجمعين . وقد كان العدل المراد به مصلحة الجميع والقائم على التعاون بين الجميع هو أفضل ضمان للسلام والازدهار . وليس فى هذا من ناحية القيم الإنسانية شىء جديد . لقد سبق هاشم فى الواقع إلى إرساء الأسس الكفيلة بازدهار مكة على مبادىء تعاونية مشابهة ، وإن كان ذلك على مستويات متعددة بين جماعات المشاركين المختلفة . وقد كان هذا التضارب نفسه هو نقطة الضعف فى الكومنولث المكى ، مما فتح الباب فى وجه الانتهاكات التى هددت فى نهاية المطاف ذلك النظام . لقد تمثل التجديد الذى أتى به محمد فى التطبيق الصارم لمبادىء التعاون بين جميع أعضاء الكومنولث الجديد (الأمة) فى كل أنشطتهم . لقد أسس محمد النبى دينا يجسد التعاون فى كل شعائره . كما أسس محمد القائد أمة قائمة على التعاون فى جميع العلاقات الإنسانية . ولكن ليس ثمة جديد حقا فى مثل ذلك التنظيم الاجتماعى . لقد كان تنظيما عربيا تماما مؤسسا على تقاليد عربية ومتخذا قوالب عربية . إن الإبداع الحقيقى إنما يكمن ببساطة فى عبقرية محمد التنظيمية ، إذ استطاع عن طريق استعمال القوالب والتقاليد العربية أن يغير مجال

الاهتمام بحيث تؤتى المبادىء التعاونية أفضل ثمارها . وعلى هذا فقد ظلت القبيلة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية ، ولكن بعد أن أصبحت متضمَّنة إلى حد بعيد فى البناء الفوقى لـ « الأمة » . لقد شُيِّعَتْ باحتقارٍ معاهداتُ « الإيلاف » وتحالف « الحُمْس » بتجارتها وبما لها من معان دينية من أجل مصلحة الإسلام (السِّلْم الإسلامى : Pax Islamica) ، حيث ينتمى كل الأفراد إلى تنظيم واحد على قدم المساواة . إن محمداً لم ينشىء دولة ، ولا هو وحّد العرب . لقد تسلم نظاما موجودا بالفعل ثم حوّره مُدْخِلاً فيه أقل قدر ممكن من التغييرات . ولكنه بموهبته الرائعة فى معرفة الاتجاه الصحيح لم يغفل قط عن هدفه النهائى . وكان للتغييرات غير الملحوظة التى أحدثها تأثير تراكمى بعيد المدى لم تكن نتيجته انتصار ثورته المعتدلة فحسب ، بل النجاح فى إنشاء دين عالمى أيضا .

رد المترجم

كاتب هذا الفصل هو د. محمد عبدالحى شعبان . وهو فيما أعرف مصرى الجنسية ، وكان يشتغل فى جامعة إكستر البريطانية رئيسا لقسم اللغة العربية ومديرا لمركز دراسات الخليج العربى . وهو متخصص فى التاريخ . وقد عاد إلى مصر مؤخرا حسبما قرأت فى خبر فى صحيفة « الشرق الأوسط » العربية التى تصدر فى لندن (فى أوائل عام ١٩٩٢م ، فيما أذكر) .

وقد سمعت بالمؤلف وأنا فى بريطانيا أدرس للحصول على درجة الدكتوراه (٧٦ - ١٩٨٢ م) سماعا عارضا ، ولم أكن أعرف آنذاك إلا لقبه .

فهذا عن الكاتب ، وهو كما ترى ليس بالكثير . أما ما كتبه فى الفصل المشار إليه فإن لنا عليه عددا من المراجعات والتعقيبات : بعضها خاص بالمنهج ، وبعضها يتصل بأفكاره ذاتها .

فأما ملاحظات المنهج فأولها أنه على طول هذا الفصل ، وهو أساس الكتاب (لأن الكتاب يتناول تاريخ الإسلام ، والفصل يتعلق بنبى هذا الإسلام ورسوله) ، نراه لايذكر مصدرا ، بل ولايستشهد

بأى مرجع عربى ، اللهم إلا « فتوح البلدان » للبلاذرى . وفى أى شىء ؟ فى معلومة جانبية تافهة هى أنه كان لليهود مركز تجارى فى الطائف ، بل وحتى دون أن يذكر نص ما قاله البلاذرى فى ذلك ، مكتفيا بما فهمه هو من كلامه .

وكل مراجعه فى هذا الفصل مقالان لكستر وآخر لسرجنت ، وثلاثة كتب لمونتجرى وات ، وكتاب لبلاييف . وهذه الكتب هى كتب تحليلية بالدرجة الأولى ، فهى لاتقدم معلومات بل تطرح آراء وتفسيرات . وهى كلها لكتاب شيوعيين أو على الأقل يأخذون بالتفسير الماركسى للتاريخ وحركة المجتمعات ، وهم بيلاييف وكستر ومونتجمرى وات . أما مقال سرجنت فليس فى صلب الموضوع ، إذ هو عن « الحَرَم والحَوْطة » (١) .

ومع هذا كله ، وهو مخجل ، فإن المؤلف يدعى بجرأة شديدة (فى مقدمة الجزء الأول من كتابه) أنه قد رجع إلى كل المصادر والمراجع المتاحة . أهذه هى كل المصادر والمراجع المتاحة فى الموضوع لأستاذ جامعى متخصص ؟ ياضيعة العلم والمنهج العلمى !

١- وهؤلاء الكتاب كلهم مستشرقون كما ترى .

الكاتب إذن يسطر فصلا كاملا عن أخطر وأهم وأول شيء في التاريخ الإسلامي ، الذي يخصص له كتابا من عدة أجزاء ، بهذه الخفة وتلك اللامبالاة ، وكأنه يكتب موضوعا في التعبير عن جمال القمر ، أو عبير الزهور في البستان ، أو المقارنة بين القلم والسيف . أهكذا يكتب أساتذة التاريخ ؟ إن كان هذا هو المنهج العلمي في كتابة التاريخ أو أي فرع آخر من فروع الثقافة والمعرفة فقل : يارحمن ! يارحيم !

أين القرآن الكريم وتفسيراته ؟ أين كتب السيرة النبوية والغزوات وطبقات الصحابة ؟ أين أحاديث النبي عليه السلام ، الذي يدور حوله هذا الفصل ؟ أين كتب الطبري وابن الكلبي والواقدي وابن حزم وابن الأثير والمقريزي ؟ لاشيء من هذا كله ولا من غيره بالمرة ! (١) هذا ، والأستاذ بعد هو دكتور في جامعة بريطانية شهيرة ،

١- يمكن الرجوع مثلا إلى كتاب « مصادر السيرة النبوية وتقويمها » للدكتور فاروق حمادة (ط. دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) ، حيث يعرض المؤلف ويناقش عددا كبيرا من المصادر والمراجع الخاصة بسيرة الرسول عليه السلام ومدى وثاقة كل منها .

وليس أستاذا فى مدرسة ابتدائية أو إعدادية . فهل هذا هو المنهج الذى يعلمه لطلبته فى الجامعة من طلاب الصفوف العادية والدراسة العليا ؟

والذى يقرأ الفصل الذى نحن بصدده للدكتور شعبان سيجده يصول ويجول كما يحلو له دون أى قيد ، فقد نبذ مصادر الدراسة ومراجعها وراءه ظِهْرِيّا ، وأخذ يسوّد من الصفحات مايحلو له ويملؤها بالكلام الذى يعجبه دون رقيب أو حسيب . وسوف يشعر القارىء بدوار هائل من غياب الإحساس بمسؤولية العلم والقلم ومن جرأة المؤلف على الحقائق والتاريخ وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم جرأة ربما لم أجد إلى الآن نظيرا لها بين من يكتبون التاريخ . إن حَقَدة المستشرقين والمبشرين لايفوتهم ، رغم سوء نيتهم وخبث كيدهم ، أن يذكروا مصادرهم ومراجعهم ويسوقوا كل ما يعين على مراجعتها كى يتمكن القارىء من العودة إليها بنفسه إذا أراد ، بغض النظر عن أنهم قد يمتلخون النصوص من سياقها أو يتلاعبون فيها بطريقة أو بأخرى أو يضفون عليها تفسيرا ليس منها ولا هى منه . أما المؤلف ، وهو ذو أصول إسلامية ، فإنه يتجاهل هذا كله ، وينطلق يكتب كما قلت عن

أخطر وأهم وأول شىء فى التاريخ الإسلامى دون الاستناد إلى أى مصدر أو مرجع عربى ، بل ولا إلى أى مرجع أوربى يقدم حوادث العصر الذى يدور حوله الفصل وأخبار سيرة النبى عليه السلام .

والعجيب الغريب أن المؤلف يأخذ على بيلاييف أنه يعتمد على آراء فردريك إنجلز فى كلامه عن الإسلام والظروف التى أحاطت بظهوره أكثر مما يعتمد على المصادر المتصلة بذلك الموضوع . فهلا قال هذا الكلام لنفسه وانتفع به ؟ أم هو مجرد كلام والسلام ؟

إذن فلاعجب إذا وجدناه يقول كلاما عجيبا ما أنزل الله به من سلطان ، ويدعى أشياء لم تحدث قط . أليس يكتب من دماغه دون أى توثيق ؟ فما حاجته إذن للالتزام بحقائق التاريخ ووقائعه ؟ وما الذى يمنعه أن يلويها على هواه ويفسرها بأى شىء يعنّ له ببال ؟

إنه يدعى أن المبدأ الأساسى فى دعوة النبى عليه السلام على مدار حياته كلها كان هو التعاون بين الأغنياء والفقراء ، ومن هنا فإنه (كما يقول) كان دائم الإلحاح على أن الشرَّ كل الشر فى تكديس الأموال وعدم العطف على الفقراء واليتامى والمساكين . كما يزعم أن خططه عليه السلام كان هدفها الأوحد والدائم هو استمرار

التجارة فى عصره وازدهارها .

أهذا كلام يقوله رجل يقيم للتاريخ وزنا ويحترم عقول قارئيه ؟ فليؤمن المؤلف هو أو غيره بالنبى أو فليكفر فهذا شأنه ، ولكلٍّ الحق فى أن يرى ما يشاء ويعتنق ما يشاء . أما القول بأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يهمه إلا التجارة ولم يَدْعُ طوال حياته (يقصد طوال سنى رسالته) إلا للتعاون بين الأغنياء والفقراء فهذا ليس مرجعه إلى ما يشاء المؤلف ، لأن حقائق التاريخ ووقائعه أكبر مما نشاء ، وينبغى احترامها والحرص على نقلها بصدقٍ بغض النظر عما نحب أو نكره .

لقد دعا الرسول الأكرم ، ضمن ما دعا إليه ، إلى البر بالفقراء والمساكين والمحرومين ، وجعل الإسلامُ لهم حقا معلوما فى أموال الأثرياء . ولكن هذا ليس كل شىء ، ولاهو أول شىء فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . وعجيب أن يقول المؤلف ما قال وكأنه يتحدث عن نبى ذهب فى حقب التاريخ الأول قبل نشوء الكتابة والتدوين فلم يَعُدْ شىء عنه معروفا إلا اسمه ! هل هذا معقول ؟ وهل معقول أن يكون الدكتور جاهلا بالإسلام ورسالته وهو المصرى

الذى تربى فى بيئة مسلمة ؟ أهكذا تفعل أوربا بالناس ؟ لا أقصد أنها تجعلهم ينبذون ماكانوا يؤمنون به من قبل ، فقد قلت إن لكل إنسان الحق فى أن يؤمن أو يكفر كما نص القرآن الكريم ، بل أقصد لىّ التاريخ ومحاولة طمس حقائقه . ولكن ماذا نفعل وهناك ناس عندهم الجراءة على إنكار الشمس فى رائعة النهار ، كما يقولون ؟

هل ظن المؤلف أنه بما سطر من مزاعم سيقنع الناس فعلا أن رسالة محمد لم يكن لها من هدف إلا التجارة والتعاون بين الأغنياء والفقراء فى سبيل نجاحها وازدهارها ، وأنه لم يكن فيها وحدانية ، ولابعث وحساب ، ولاجنة ونار ، ولا ملائكة وجن وشياطين ، ولاصلاة وزكاة وحج ، ولاصدق وأمانة وكرم وشجاعة وسعى حثيث فى سبيل الرزق ، ولاحبّ ومودة ، ولانظافة ولياقة وتهذيب وذوق اجتماعى مصفىًّ ... إلخ ؟ لقد كان فى رسالة محمد العقائد والعبادات والمعاملات والسلوك والجهاد والأحوال الشخصية ، وليست التجارة إلا فرعا واحدا من فروع المعاملات . فأى معنى لاختزال ذلك كله فى شىء واحد ليس إلاّ ؟ أليس فى القرآن والأحاديث وماكتب المسلمون فى علم الكلام والفقه والأخلاق إلا التجارة والتعاون بين الفقراء

والأغنياء ؟ أليس عجيبا أشد العجب أن يجد الإنسان نفسه مضطرا إلى توضيح البديهيات وتأكيدها ؟ ولكن ما العمل وهذا مايقوله أستاذ جامعى فى جامعة من أشهر الجامعات العالمية ؟

وهو أيضا يقول : « إن أية محاولة لدراسة أنشطة محمد فى مكة والجزيرة العربية دون الالتفات إلى مسألة التجارة لتساوى بالضبط دراسة الكويت أو الجزيرة الآن دون أخذ البترول فى الاعتبار » . قد يكون الشق الثانى من هذا الكلام صحيحا . كذلك فمن المؤكد أنه لايمكن فهم الإهداء المشحون بعبارات المديح والثناء الطنان الذى وجهه المؤلف فى صدر الجزء الثانى من كتابه إلى الشيخ أحمد زكى يمانى والذى جاء فيه : « إلى صديقى الشيخ أحمد زكى يمانى (١) ، الذى أعادت سياسته إلى الحياة كثيرا من خصال أسلافه العظام » إلا إذا أخذنا « البترول » فى الاعتبار . أما هذه المطابقة بين دعوة الرسول عليه السلام والتجارة فكلاً ثم كلاً ، لأنها عدوان أثيم غشوم على التاريخ وحقائق التاريخ .

ويستمر المؤلف فى غيه وعدوانه على حقائق التاريخ فيزعم أن

١- كان الشيخ يمانى وزيرا للبترول فى المملكة العربية السعودية فى ذلك الحين .

الرسول حينما عرض على عدد من المسلمين الهجرة إلى الحبشة للاحتماء بملكها العادل الذى لايُظْلَم عنده أحد إنما أرسلهم بغية إقامة علاقات تجارية مستقلة لولا أن قريش أحبطت مسعاه .

أتدرى من أين استقى المؤلف هذا الخبط العجيب ؟ إنه يشير فى الهامش إلى مونتجمرى وات وكتابه «Muhammad at Mecca» .

أما ابن إسحاق وابن هشام والواقدى والسهيلى فكأنْ ليس لهم وجود أو كأنهم لم يكتبوا فى السيرة النبوية وهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة شيئا . لقد ذكر ابن هشام مثلا فى سيرته عن ابن إسحاق أنه « لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية لمكانه من الله وعمه أبى طالب وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لايُظْلَم عنده أحد، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم » (١) . ثم ذكر شعورهم بالأمن بأرض

١- « السيرة النبوية » لابن هشام ومعه تفسير أحاديثه « الروض الأنف » للسهيلى / المكتبة الفاروقية / ملتان / باكستان / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م / ١ / ٢٠٤ .

الحبشة وحمدهم جوار النجاشى وعبادتهم الله هناك لايخافون على ذلك أحدا ، وأن النجاشى قد أحسن جوارهم . كما ساق الأشعار التى قالها بعض المهاجرين تعبيرا عن هذه المشاعر . وعقّب على ذلك بما يقول ابن إسحاق من أن قريشا « لما رأت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين إلى النجاشى فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها » (١) . وكانت حجة رسولى قريش عند النجاشى ورجاله أن هؤلاء المهاجرين «غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لانعرفه ولا أنتم » (٢) . ثم إن النجاشى لم يشأ أن يتخذ أى تصرف قبل أن يسمع من المهاجرين ، الذين تلخّص دفاعهم عن أنفسهم فى المقارنة بين الشرك الذى كانوا عليه وأكلهم الميتة وإتيانهم الفواحش وقطعهم الأرحام وإساءتهم الجوار وأكل القوى منهم الضعيف

١- المرجع السابق / ١ / ٢١٠ - ٢٠٤ .

٢- السابق / ١ / ٢١٢ .

وبين الإسلام ومايدعو إليه من الوحدانية والصلاة والزكاة والصيام والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، والانتهاء عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . ثم قرأوا عليه ، بناء على طلبه أن يسمع منهم شيئا من القرآن الذى جاءهم به نبيهم ، آيات من سورة « مريم » ، مما أبكى النجاشى حتى اخضلّت لحيته وجعله يقول : « إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » . ومع ذلك فلم ييأس السفيران وعادا إلى النجاشى في اليوم التالى وأخبراه أن المسلمين يقولون إن عيسى عبد ، فلم تنجح هذه المكيدة أيضا ، إذ أمّن النجاشى على مايقول المسلمون فى هذا الصدد (١) .

هذا مايقوله ابن إسحاق وابن هشام فى السيرة النبوية ، وهو نفسه ما يقوله كل كتاب السيرة والمؤرخين المسلمين . وليس فيه ، كما نرى ، أى كلام عن التجارة والمال والاقتصاد ، وإنما الكلام عن

١- السابق / ١ / ٢١٢ - ٢١٣ . ويمكن الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية التى قام بها المستشرق البريطانى ألفرد جيوم لسيرة ابن إسحاق بعنوان «The Life of Muhammad» / مطبعة جامعة أكسفورد / ١٩٨٠ م / ١٤٦ - ١٥٣ .

الوحدانية وعبادة الله والمبادىء الخلقية النبيلة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وأن عيسى ليس إلا عبدا لله ونبيا . وهو أيضا نفس ما يقوله المستشرقون الذين يحرصون على توثيق كلامهم والرجوع إلى مصادر الموضوع ومراجعه ، كواشنطن إرفنج وكارلايل وجورج سيل وألفرد جيوم ووليم موير ... إلخ ، ومنهم مارتن لنجز ، الذى كان تخصصه الأصلى فى الأدب الإنجليزى ثم تحول فيما بعد إلى دراسة الإسلام وكَتَبَ سيرة للنبى مستندا فيها إلى المصادر الإسلامية ، بعنوان « Muhammad - his life based on the earliest sources » (١) .

أما الكاتب ، وهو كما قلت عربى مصرى ينتمى إلى بيت إسلامى ، فهو يخترع ويؤلف ، أو يتابع مونتجمرى وات فى اختراعه وتأليفه ، وكأن التاريخ تأليف واختراع ! ومتى ؟ بعد وقوع حوادثه بألف وأربعمائة سنة ! أليس هذا شيئا رهيبا ؟ لو أن المؤلف حين كتب ماكتب قد اعتمد على رواية حبشية لحوادث الهجرة تخالف ماقاله المسلمون لقلنا له : نعم ونعام عين ! ولكن أين هذا المصدر

١- انظر ص / ٨٠ ومابعدها من هذا الكتاب (ط . George Allen & Unwin / ١٩٨٣ م) .

الحبشى ؟ أم ترى المؤلف يلجأ إلى أسلوب الكهان وضاربى الودع ؟ ولكن هل يحتمل مثل هذا الموضوع بجلاله وخطره ذلك الهزل ؟ إن هذا وايم الله لعيب كبير ! إن المسألة ليست مسألة إيمان أو كفر كما قلتُ ، ولكنها مسألة احترام لمنهج البحث والحقيقة ، بل احترام أصحاب الأقلام قبل ذلك لأنفسهم .

وبنفس الطريقة يعلل المؤلف ذهاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حيث تقيم قبيلة ثقيف ، الذين يصفهم بأنهم « المشاركون الصغار فى التجارة المكية » . وأية تجارة تلك التى يقصد محمد الطائف من أجلها ؟ لقد كان بعض كبار ثقيف يقولون : « لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١) . فهذه إذن هى نظرة رجال ثقيف إلى الأمر . إن عنادهم وكبرهم وغباءهم قد سوّل لهم أن يكفروا بمحمد ، لا لشىء إلا لأنه لم يكن فى نظرهم رجلا من رجال مكة والطائف العظماء . لقد كانوا يظنون ، بسبب عنجهيتهم وانغلاق عقولهم ، أن مكانة النبوة السامية ينبغى أن تكون تبعا للمركز المالى للشخص . فمن أين أتى المؤلف إذن بهذا الكلام عن التجارة ؟ ثم من

١- الزخرف / ٣١ .

يا إلهى ذلك الذى يقرأ دعاء النبى عليه السلام بعد أن طاردته الحجارة وأدمت عقبيه وألجأته إلى أحد البساتين هناك ، هذا الدعاء الذى يهز الكيان كله هزا ويفجر الدمع فى العيون والحنان فى القلوب ، ثم تواتيه نفسه بعد ذلك أن يقول إن محمدا قد ذهب إلى الطائف لأغراض تجارية ، اللهم إلا أن يكون ذلك الشخص ملتوى النفس مدخول الضمير ؟ ألا شاهت الوجوه ؟ إن من الحجارة ، كما يقول القرآن الكريم ، لما يتفجر منه الأنهار ، ولكن قلوب بعض الناس أشد قسوة من الحجارة ! إنها هى القلوب التى وصفها القرآن بأن عليها أقفالها ! والآن إلى الدعاء العجيب : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أُبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحلّ علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولاقوة إلا بك ! » (١) .

١- السيرة النبوية لابن هشام / ١ / ٢٦١ . وهذا الدعاء لا يزال ، حتى فى =

بالله أهذا كلام رجل كان سفره إلى الطائف من أجل أغراض تجارية ؟ إن أحد الباحثين المعاصرين يعلق على ذلك بهذه الكلمات : « ألا ليت كان ثمة فى بعض الصدور البشرية قلب رقيق لكى يدرك صفاء الروح التى أطلقت العنان لمشاعر فى مثل هذا السموّ كله وسط ظروف فى مثل هذه القسوة كلها ! ... أى إيمان راسخ بالله كان إيمانه ! وأى إذعان بهيج للمشيئة الإلهية كان إذعانه ! وأى سعادة روحية محضة كانت سعادته ! إن هذه كلها (كذلك قال) لم تكن شيئا مذكورا مادام يتمتع برضا الله وارتياحه » (١) .

ويقول التاريخ إن عداسا غلام أصحاب البستان الذى التجأ إليه النبى من سفاهة أوباش الطائف وأذاهم عندما جلس إلى النبى ، بعد أن قدم له قطفا من العنب وتحاور معه قليلا وسمعه يسمى قبل أن

= ترجماته الإنجليزية ، يشع نورا وإيمانا وحنانا وعظمة ونبلا . انظره بالإنجليزية كاملا فى ترجمة جيوم لسيرة ابن إسحاق / ١٩٣ ، وكتاب « Muhammad » لمارتن لنجز / ٩٨ - ٩٩ ، وفقرات منه فى « Muhammad and the Course of Islam » لـ H. M. Balyuzi / ط George Roland / اكسفورد / ١٩٧٦ م / ٤٠ .

١- مولانا محمد على / حياة محمد ورسالته / ترجمة منير البعلبكى / دار العلم للملايين / بيروت / ط ٣ / ١٩٧٦ م / ١٠٧ .

يأكل ، أكب على رأسه ويديه وقدميه يقبلها (١) ، وذلك لما كان يتمتع به من إنسانية وقلب حى . بيد أن أناسا على غير شاكلة عداس ، ذلك الغلام الإنسان النبيل ، يفضلون أن يُقَبِّلوا شيئا آخر ، هو أحذية أعداء الإسلام .

ويعزو المؤلف الفتور الذى قابل به اليهود وغيرهم من أهل المدينة انتشار الإسلام فيها إلى التجارة . كما يعزو ترحيب اليثربيين (الذين قابلوه عليه السلام سرًا فى مكة) به وبدينه وبهجرته إليهم واستعدادهم للدفاع عنه إلى ذلك العامل أيضا ، عامل التجارة . ذلك أنهم ، كما يزعم ، كانوا على وعى تام بخبرته فى التجارة هو ومن هاجروا معه إليهم .

ونسأل : من أين للمؤلف بهذا ؟ أفتح قلب النبى عليه السلام وقلوب أهل يثرب فوجد فيها شيئا آخر غير ما أعلنوه لبعضهم البعض وسجلته كتب الحديث والسيرة والتاريخ من دعوته إياهم إلى الإسلام وقبولهم هذه الدعوة ودخولهم فى دين الله ؟ وبالنسبة لليهود ، أهذا الذى ذكره هو السبب فى نفورهم من الإسلام وعدائهم

١- السيرة النبوية لابن هشام / ١ / ٢٦٢ .

لصاحبه وأتباعه ؟ إن المؤلف لايؤمن بطبيعة الحال بقدسية القرآن وأنه وحى من عند رب العالمين . فليكن ، فذلك شأنه . ومن هنا فإذا قلنا إن القرآن يؤكد أن اليهود كفروا بمحمد وديانته حسدا من عند أنفسهم وبغضا أن ينزل الوحى على إنسان من غير بنى إسرائيل ، فلسنا نطالبه بأن يؤمن بهذا بوصفه وحيا إلهيا ، بل بوصفه كلاما (مجرد كلام) سمعه اليهود ووعوه ومع ذلك لم يعترضوا على ماجاء فيه فيردوا عليه بأن محمدا إن هو إلا تاجر جاء إلى يثرب لينافسهم على لقمة العيش فعادَوْه من أجل ذلك . أم إن هناك مصدرا عبرانيا استقى منه المؤلف هذا الكلام المُمْغِص ؟ فَلْيُطْلِعْنا عليه إن كان من الصادقين .

ويمضى الدكتور شعبان فى تفسيره العجيب ذى النغمة الواحدة المسئمة فلايرى فى « الصحيفة » التى كتبها النبى لتنظيم العلاقة بين طوائف المدينة بعضها وبعض فى الدين والسلم والحرب إلاّ اتفاقية تجارية . إن الصحيفة تخلو من أية إشارة إلى التجارة وأى شىء يتعلق بها (١) . والمؤلف نفسه يقر بذلك . لكن لا تظن أنه ستعييه

١- انظر نص هذه الصحيفة فى سيرة ابن هشام / ٢ / ١٦ ومابعدها . ويوجد =

الحيلة للخروج من هذه الورطة . أتدرى ماذا قال ؟ لقد قال إن مسألة التجارة كانت فيما يبدو أمراً مسلما به بين الجميع . أى أنه أمر من البداهة بمكان بحيث لايحتاج إلى النص عليه . إذن ففيم كانت كتابة الميثاق أصلا ؟ إن المؤلف لايفرق ، فيما يبدو ، بين النبى عليه الصلاة والسلام وبين ذلك الحاكم العربى الذى كانوا يقولون عنه ساخرين إنه يضىء نور غمَّاز سيارته الأيسر ليوهم الناس أنه سينعطف يسارا على حين يتجه هو إلى اليمين ، مشيرين إلى أنه كان يتظاهر بالسير على خُطَا سلفه فى الوقت الذى كان يعمل بكل طاقته وجهده على التعفية على سياسته وتحطيم كل ماكان يدعو إليه وينادى به ! بيد أن الرسول شىء ، وذلك الحاكم شىء آخر ! لكن يبدو أن للمؤلف رأيا مختلفا . فليكن ، ولكن أين الدليل ؟ أين المصادر ؟ هذا هو محك الكلام . إنه إذا كانت كتابة التاريخ بهذا المنهج فلا كان التاريخ

= تلخيص لبنودها فى « The Life of Muhammad » لجيوم (ص ٢٣١ ومابعدها) و «Muhammad » لمارتن لنجز (ص ١٢٥ - ١٢٦) و « Muhammad and the Course of Islam » للبليوزى (ص ٥٦ - ٥٧) و « حياة محمد ورسالته » لمولانا محمد على (ص ١٢٩ - ١٣٠) .

ولا كانت الكتابة .

وينظر الكاتب إلى تربص المسلمين بقافلة قريش العائدة من الشمال على أنها غارة من الغارات التى كان قطاع الطريق فى الجاهلية يشنونها على قوافل التجارة المارة على مقربة من بلادهم ، زاعما أن الرسول كان يهدف من وراء هذا العمل إلى التوصل مع أهل مكة إلى اتفاقية يعطونه بمقتضاها إتاوة من المال كى يكف أذاه هو وأصحابه عن قوافلهم وتجارتهم ، إلا أن قريش ، وقد تيقنت أنه سوف يطرح شروطا متشددة ، رفضت أن تعقد معه مثل هذه الاتفاقية . إذن فالمسلمون قد تحولوا بعد الهجرة إلى عصابة من عصابات قطاع الطرق ! إن أحدا لاينكر أنهم كانوا يهدفون إلى الاستيلاء على القافلة . بيد أن ذلك لايمكن تسميته عند أى منصف « قطع طريق » ، بل كانوا بعملهم هذا يحاولون الحصول على بعض حقوقهم التى أخرجهم منها أهل مكة واستولوا عليها من أرضين وبساتين ودور وأموال . ودعنا من النفوس التى أُزْهِقت ظلما وجبروتا ، والجلود التى شويت بالسياط ، والصدور التى كادت أن تخنقها الصخور الملتهبة التى كانت توضع فوقها ، والمؤامرات التى لم تكن

تنتهى ، والسخريات والإهانات من كل جنس ولون ! وهل قطاع الطريق يصمدون لأعدائهم إذا جيّشوا جيشا عدد جنوده كعددهم ثلاث مرات ويضم من الأسلحة والعتاد وحيوانات الحرب ماليس عندهم وأتوا ليحاربوهم به ؟ ثم هل علينا أن نغطى على عيوننا ونغلق عقولنا وضمائرنا فلا نحاول أن نفهم مغزى العبارات والتصرفات التى صدرت عن محاربى المسلمين دالة على عميق إيمانهم ورغبتهم الجارفة فى الاستشهاد ؟ أم ترى المؤلف سيقول أيضا هنا : إنهم كانوا يذكرون الشهادة ولكنهم كانوا يقصدون المال والتجارة ؟ والله إن هذا لعبث !

وعلى سنته فى ظلم الجانب الإسلامى دائما وتفسير كل ما يفعله النبى والمسلمون فى ضوء المصالح التجارية نرى المؤلف يرجع غزوات المسلمين لليهود بما فيها من تذبيح بنى قريظة عن بكرة أبيهم (على حد قوله) إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد وجد أن دخول اليهود أعضاءً فى الأمة لايتواءم مع مصالحها التجارية . وهو بهذا يتجاهل ، كعادته دائما ، التاريخ وشهادته . لقد بدأ اليهود بالغدر ، وتكررت خيانتهم للشروط التى وقعوا عليها فى « الصحيفة » مع غيرهم من طوائف أهل المدينة ، وتآمروا على قتل النبى عليه السلام

والقضاء على دينه . وقد سامحهم صلى الله عليه وسلم فى المرتين الأوليين فاكتفى من بنى قينقاع وبنى النضير بترك المدينة حاملين أموالهم . ولكنه أمام غدر بنى قريظة ، الذى كاد أن يقضى على المسلمين جميعا لولا لطف الله وانكشاف خيانتهم ، وتواطئهم مع الأحزاب لِطَعْن النبى وأتباعه فى ظهورهم بكل خسة ونذالة وحقد أسود سام ، لم يستطع أن يمضى فى سياسة التسامح هذه ، إذ لم يكن هذا التصرف منهم إلا الخيانة العظمى عينها بكل تأكيد . وعلى أية حال ، فقد كانت العقوبة التى وُقّعت على أولئك الخونة الأنذال أخف كثيرا مما ينص عليه كتابهم المقدس فى معاملتهم للأمم المغلوبة ، إذ يوجب عليهم أن يُعْمِلوا السيف فى جميع أفراد الأمة التى يُقَدَّر لها أن تُهْزَم على أيديهم لايتركون منها ولانسمة واحدة ، لا الخونة من رجالها فقط كما حدث فى عقوبة بنى قريظة (١) .

والكاتب يسمى « الزكاة » ضريبة ، ويقول إن محمدا قد فرض

١- انظر هذا فى كتابى « مصدر القرآن - دراسة فى الإعجاز النفسى » / ط ١٩٨٨م / ٣٢ ومابعدها و ١١٧ . أما التشريع المشار إليه فموجود فى سفر التثنية / أصحاح ٢٠ / ١٠ - ١٦ .

على القبائل التى أخذت تتقاطر وفودها على المدينة فى أواخر حياته صلى الله عليه وسلم أن تدفعها له . وهو يدّعى أيضا أنها ليست إلا إحياء لتلك الضريبة القديمة التى كان على بعض القبائل أن يدفعوها إذا أرادوا المشاركة فى تجارة مكة .

وهذا كله خلط وخبط وتضليل وتهويل . فالزكاة ليست هى الضريبة ، وهذا أمر من الوضوح بمكان ، بيد أن المؤلف كديدنه لايبالى . إن الزكاة هى حق العاجزين المحتاجين ، أما الضرائب فإن الناس يدفعونها للدولة فى مقابل الخدمات التى تقدمها لهم ، أى أنها منهم وإليهم (١) . وعلى أية حال ، فلا الزكاة ولا الضرائب كان يأخذها الرسول كما يقول الكاتب ، بل كانت تذهب إلى خزانة الدولة . ثم إن حق الفقراء والمحرومين منصوص عليه فى السور المكية . فليس الأمر إذن ، كما يزعم الكاتب ، أمر تشدد من الرسول عليه السلام

١- فى التفرقة بين الزكاة والضريبة انظر على سبيل المثال : أبو الأعلى المودودى / فتاوى الزكاة / جامعة الملك عبدالعزيز / ط ١ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / ٩٢ - ٩٦ ، ود. محمود عاطف البنا / نظام الزكاة والضرائب فى المملكة العربية السعودية / دار العلوم / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ١٣ ومابعدها ، و ٥٥ ومابعدها .

فى شروطه مع الوفود بعد استقوائه بحيث أصبح يوجب عليهم الدخول فى الإسلام ودفع الضرائب له بعد أن كان لايعبأ بهذا ولابذاك فى البداية . جاء فى سورة « المعارج » ضمن صفات الناجين من النار : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١) ، وقال تعالى فى « الذاريات » فى حديثه عن المتقين الفائزين بالجنة ومافيها من نعيم : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » (٢) ، وفى « المؤمنون » فى صفات المؤمنين المفلحين : « والذين هم للزكاة فاعلون » (٣) ، وفى « الروم » : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (٤) ، وفى سورة « لقمان » عن المحسنين أنهم هم « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم

١- الآيتان / ٢٤ - ٢٥ .
٢- آية / ١٩ .
٣- آية / ٤ .
٤- آية / ٣٩ .

يوقنون » (١) ، وهـو بنصه نفس ماجاء فى الآية الثالثة من سورة « النمل » وصفا للمؤمنين ... وغير ذلك . كما مرّ بنا أن المسلمين الذيـن هاجروا إلى الحبشـة قد ذكروا أمام النجاشى الزكاة ضمن ماجاءهم بـه الرسـول عليه السلام . فها نحن نرى هذه النصوص المكيـة ، وهى متعددة وهناك غيرها كما قلت ، تتحدث بوضوح شديد عن حق المعوزين العاجزين فى أموال إخوانهم من المؤمنين المقتدرين ، وبعضها يستخدم لفظة « الزكاة » استخداما صريحا . الزكاة إذن موجودة منذ العهد المكى وإن لم يفصَّل القول فيها وتُقَنَّن ، فيما يقول العلماء ، إلا فى المدينة ، على خلاف بينهم فى تحديد تاريخ ذلك : هل هو السنة الثانية بعد الهجرة أو ما بعد ذلك ؟ (٢)

١- آية / ٤ .

٢- انظر مثلا « مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية والإسلامية » / المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ومكتب التربية العربى لدول الخليج / ٢ / ٢١١ (من دراسة د. محمد أنس الزرقاء فى الرد على آراء المستشرق شاخت عن الزكاة) ، ود. يوسف القرضاوى / فقه الزكاة / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٥ / ١٤٠١ هـ - ١١٩٨١ م / ١ / ٥٢ - ٦٢ ، ود. عبد الله بن محمد الطيار / الزكاة / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م / ٥٩ - ٦٢ .

وليس عجيبا أن يحاول الكاتب تلطيخ المفهوم النبيل والهدف السامى لعبادة الزكاة بالادعاء بأنها ليست أكثر من إحياء للضريبة التجارية القديمة التى كان يجمعها منظمو التجارة المكية ، فإن الكاتب قد أخذ على كاهله تشويه صورة الإسلام ، والإساءة بكل سبيل إلى رسوله ، ووضع مبادئه عليه السلام وتشريعاته وتصرفاته فى إطار بشع مُنَفِّر !

ويحصر المؤلف جهود الرسول عليه السلام فى المدينة فى أنه قد وضع أساس مركز تجارى كبير يتفوق على المراكز السابقة . وهو كلام كسائر مايقول المؤلف ليس له رأس ولا رجلان ، وإلا فأين كان ذلك المركز التجارى ؟ أم كان الرسول يخفيه تحت الأرض ولايعرفه أحد إلا هو وبعض المقربين منه ، ثم بعد ذلك بأربعة عشر قرناً الأستاذ المؤلف ؟ لقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يبلّغ الناس ما ينزل عليه من الوحى ، وكان يدير شؤون الدولة بوصفه حاكما سياسيا ، كما كان يقود بنفسه فى أحيان كثيرة الجيش الإسلامى ، وكان يقضى بين الناس . ولكننا لم نسمع أبدا أنه كان يتاجر أو يشرف على إحدى المؤسسات التجارية أو ينظم القوافل . لقد كان بين المسلمين تجار ،

ولكن كان منهم أيضا زراع وصناع وجنود وقُرَّاء . فلم يكن للتجارة إذن قط وضع متميز ، ولا كانت المدينة مركزا تجاريا بالمعنى الذى يقصده المؤلف ، ولا كان النبى كبير التجار فيها .

وينتهى الدكتور المؤلف إلى أن النبى عليه السلام لم يأت بجديد ، وأن دينه ليس بالشىء الجديد ، وحتى القيم الإنسانية التى أتى بها من وجوب التعاون بين أفراد الأمة من أجل مصلحة الجميع وانتشار السلم والازدهار ليس فيها أى معنى جديد ، فقد سبقه جده هاشم إلى ذلك . بل إنه ينفى أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد أنشأ دولة أو وحد العرب .

هذا ماقاله الدكتور فى آخر الفصل الذى نحن بسبيل مناقشة ماورد فيه من آراء وأفكار . ومع ذلك فإنه قد قرر فى بداية هذا الفصل (قبل اثنتى عشرة صفحة فقط فى النص الإنجليزى) ، عكس ذلك تماما . وذلك حين كان يناقش بيلاييف ، الذى قال : « ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية دينا جديدا يعكس تغيرات ضخمة فى المجتمع العربى ، ألا وهى التفاوت فى الملكية والرق وتطور المبادلات . إن ظهور هذا الدين مرجعه إلى نشوء نظام قائم على الرق

داخل مجتمع بدائى فى طريقه إلى الانهيار » ، فرد عيه كاتبنا قائلا : « إن مما لاشك فيه أنه دين جديد ، كما أن مما لاشك فيه أيضا وجود تغيرات ضخمة فى المجتمع العربى ، إلا أن بقية الدعوى لاتستند إلى أى دليل بالغا مابلغت تفاهته فى المراجع التى بين أيدينا » .

وهذا تناقض حاد ورهيب ، وفى أول فصل من الكتاب ، وفى مالايزيد عن اثنتى عشرة صفحة ، وفى أهم شىء فى الدراسة كلها . وهو من العيوب المنهجية المسيئة التى لاتُقْبَل من باحث مبتدىء بل من طالب صغير ، بله من أستاذ فى إحدى الجامعات العريقة فى واحدة من أعرق الأمم المتقدمة علما وثقافة .

أما أن الرسول أتى أو لم يأت بدين جديد فذاك يحتاج إلى شىء من التفصيل . إن الرسالات السماوية كلها نابعة من مصدر واحد ، وكلها تدعو إلى الإيمان بالله ووحدانيته وبالبعث وبالأخلاق النبيلة الكريمة من صدق وتحاب وتعاون ... إلخ . بيد أنها فى مجال التشريعات تختلف من دين لآخر . وكذلك الأمر فى صور العبادات ، وإن قُصد بها كلها وجه الله ومرضاته . فهذا هو القول باختصار شديد

فى هذه المسألة من الناحية النظرية .

على أن الأمر يمكن النظر فيه من ناحية أخرى ، إذ لم تظل الأديان والكتب السماوية السابقة على حالتها الأولى من النقاء والصفاء الذى نزلت به من عند رب العالمين ، فجاء الإسلام ليعيد الأمور المعوجة إلى استقامتها التى كانت عليها . فالإسلام من هذه الزاوية دين جديد حتى داخل مجال بعض العقائد والأخلاق ، إذ الوحدانية مثلا شىء مختلف عن التثليث ، وعالمية الألوهية ليست مما يؤمن به اليهود ، الذين ينظرون إلى الله سبحانه على أنه إله خاص بهم ويحابيهم على غيرهم لا لشىء إلا لأنهم بنو إسرائيل . ومثل ذلك تحريم الإسلام الربا تحريما مطلقا ، فى حين أن كتاب اليهود كما هو بحالته الراهنة يحرّمه فقط فيما بين اليهود بعضهم وبعض ، أما تعاملهم به مع غيرهم فهو حلال ... وهكذا .

هذا ، ولا أظن عاقلا يمكن أن يوافق المؤلف على دعواه بأن ما فعله الرسول ليس شيئا آخر غير مافعله جده البعيد هاشم تقريبا . لقد كان هاشم ذاك تاجرا ومنظما للقوافل ، أما محمد فهو رسول صاحب دين . وحتى لو قال الكافرون إن هذا الدين إنما أتى به محمد

من عنده فيبقى أنه مع ذلك كله دين ، والدين شيء مختلف عن تنظيم القوافل والتجارة .

كذلك لا أظن عاقلا له أدنى إلمام بالتاريخ يمكن أن يأخذ مأخذ الجد ماقاله المؤلف من أن الرسول عليه السلام لم ينشىء دولة ولم يوحد العرب . إن أقل ما يوصف به مثلا هذا الزعم أنه جهل أو عبث أطفال ، وإلا فما الذى يمكن أن نسمى به خضوع العرب جميعا فى آخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لحكومة واحدة هى حكومة المدينة وحاكم واحد هو محمد ، وانخراط القادرين على الحرب منهم فى جيش تلك الدولة ... إلخ ؟ والله إننى لا أدرى ماذا يمكن أن أقول لصاحب مثل هذا المنطق ! إن المؤلف يقول إن محمدا قد وجد هذا كله جاهزا، وكل مافعله هو أنه أدخل فيه بعض التحويرات الطفيفة . وهو ، كما لايخفى ، كلام لامعنى له ولامنطق فيه ، ويكذبه التاريخ تكذيبا عنيفا . ثم إنه ، كما رأينا ، قد سلّم مع بيلاييف بأن التغييرات التى أحدثها النبى فى الجزيرة كانت تغييرات ضخمة .

والمؤلف يقول إن النظام الذى أقامه الرسول عليه السلام والطاقات

الجديدة التى أطلقها فى الجزيرة العربية قد قدر لهما أن يصلا إلى مدى ماكان يخطر له على بال ، إذ اضطر التراجعُ الاقتصاديُّ المحتومُ الذى أدت إليه أعمالُه العربَ إلى أن يستغلوا تلك الطاقات فى الإغارة على الأرضين المجاورة وفى أن يكونوا بعد وفاته وعلى غير قصد منهم أصحاب إمبراطورية .

والسبب فى قوله هذا الكلام هو أنه يصرّ إصرارا عجيبا على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن إلا تاجرا بارعا فى تنظيم أمور المال كجده هاشم ، مع أن نصوص القرآن والسنة فى هذا الصدد تصك هذا المنطق المتهافت وتفتته بل تسحقه سحقا . فالقرآن يقول « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (١) ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) ، « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٣) ، « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله

١- سبأ / ٢٨ .

٢- المؤمنون / ١٠٧ .

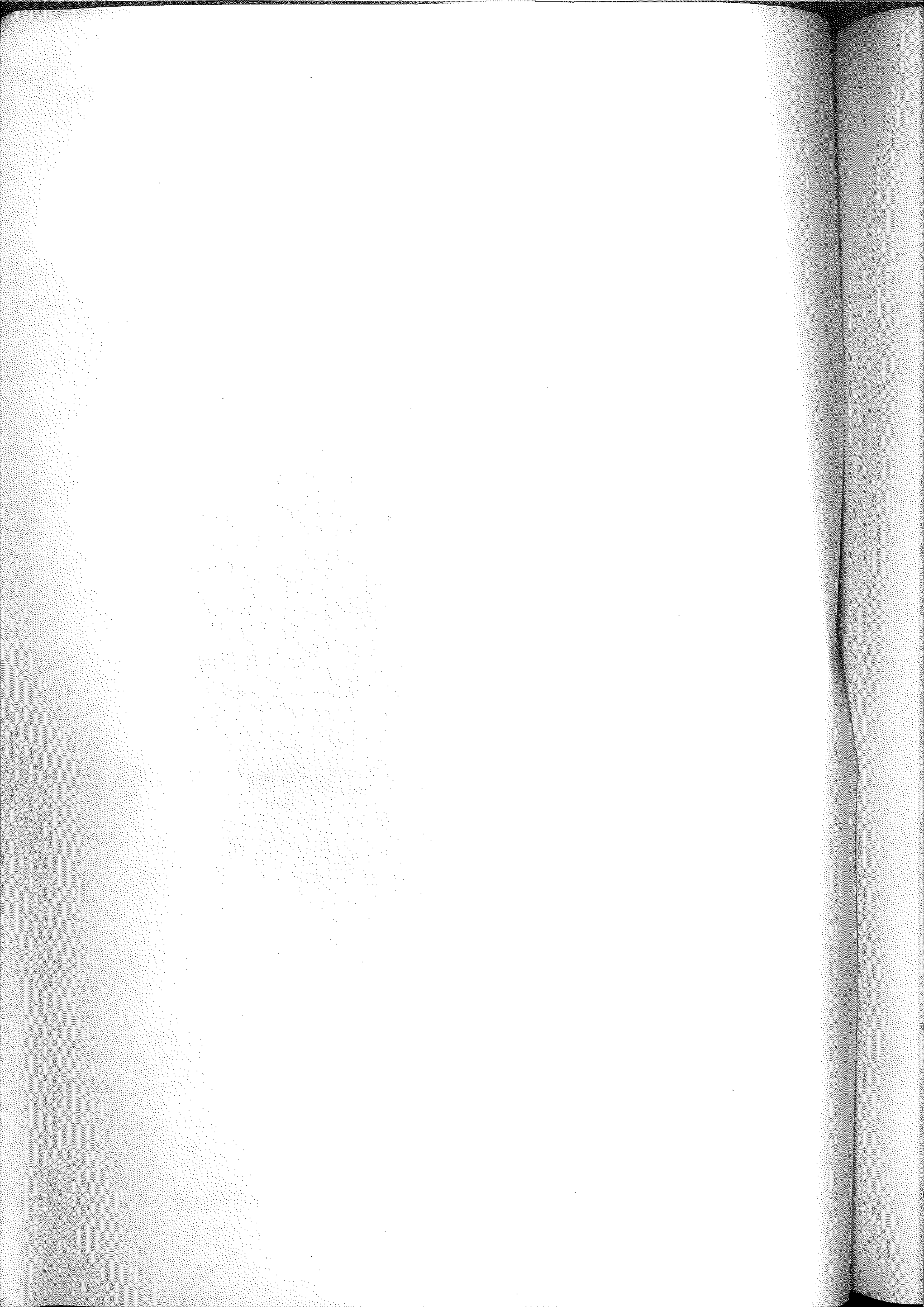
٣- التوبة / ٣٣ ، والصف / ٩ .

شهيـداً » (١) . وهذه النصوص هى نصوص مكية ومدنية ، مما يدل على أن عالمية الدعوة لم تكن فكرة طارئة ، بل كانت موجودة منذ العهد المكى وظلت كذلك فى العهد المدنى . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، وهو بصدد التفرقة بينه وبين إخوانه الأنبياء السابقين ، إن كلا منهم كان يُبْعَثُ إلى أمته ، أما هو فبُعث إلى الناس كافة . كما أنه عليه السلام قد بشر أصحابه ، والحصار الذى ضربته قريش وحلفاؤها على المسلمين فى غزوة الأحزاب على أشده ، بفتح فارس والروم والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر، مما أثار استغراب بعض من سمعوه يقول هذا . ومن ذلك بشارته لهم بفتح القسطنطينية ، التى لم يستول عليها المسلمون كما هو معروف إلا بعد أن سُجِّلت أحاديث النبى عليه السلام بحيث لايمكن لأى مناكفٍ أن يدعى أن المسلمين هم الذين أضافوا هذا إلى كلامه عليه الصلاة والسلام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، تطبيقا لذلك ، برسائل إلى ملوك عصره يدعوهم فيها إلى الإسلام والاعتـراف بنبـوتـه . ولم يعـد أحـد يجـادل الآن فـى هـذا ،

١- الفتح / ٢٨ .

وبخاصة بعد أن عُثر على بعض هذه الرسائل . فكيف جرؤ المؤلف مع ذلك كله على القول بأن الأمور قد وصلت إلى مدى لم يخطر للنبى عليه السلام ببال ، وأن فتح المسلمين للبلاد التى حولهم بعد وفاته وانسياحهم فى الأرض ينشرون فيها الإسلام وتكوينهم إمبراطورية إنما كان دون قصد منهم ، أى بضربة حظ عشوائى ؟

والناظر فى تحليل المؤلف لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ تلك الحقبة يجد أنه قد اتخذ الاقتصاد (التجارة بالذات) عاملا أوحد . وهو يردد أيضا مقولة الماركسيين من أن التراكم الكمى يؤدى إلى تغير كيفى ، أى أن المادة هى العامل الذى يؤثر فى الروح ، وذلك عند قوله فى ختام فصله الذى نناقشه هنا إنه كان للتغييرات غير الملحوظة التى أحدثها الرسول عليه الصلاة والسلام تأثير تراكمى كانت نتيجته فى نهاية المطاف نشوء دين عالمى . فهذا الدين العالمى هو نتيجة غير مقصودة من محمد ، الذى هو فى نظر المؤلف ليس أكثر من تاجر عبقرى فى مسائل التنظيم المالى والتجارى أدت تصرفاته وأعماله إلى ما لم يكن يطوف له بخيال . إن نشوء هذا الدين ليس عنده إلا تغيرا كيفيا سببه هذه التراكمات الكمية التى



أشار إليها .

والمؤلف يجرى فى هذا على منهج الماركسيين فى تحليل حوادث التاريخ وتفسير ظواهره ودارسة شخصياته . وهو منهج ضيّق العطن ، إذ العوامل التاريخية متعددة ومتشابكة . والناس يحركهم عدد من الغرائز والمخاوف والمطامح والمطامع والآلام والآمال والأساطير والأشواق الروحية العليا ... إلخ ، فليس المال والاقتصاد إذن إلا عاملا من عوامل . بل كم رأينا ونرى من يضع هذا العامل وراءه ظهريا فى سبيل مبدإ وطنى أو قومى أو دينى أو سياسى أو إنسانى أجدر فى نظره بأن يوليه وقته وراحته بل وحياته إذا اقتضى الأمر . والرسول الكريم أعظم مثال على ذلك ، فقد انصرف عن مصالحه الشخصية والأسرية والقبلية بل والقومية أيضا فى سبيل نشر الدعوة التى كلفه الله سبحانه بها والمنافحة عنها ، وتحمل فى ذلك ضروبا من الأذى والإهانة والعنت ، وتعرضت حياته نفسها للخطر ، إذ تآمر المشركون عشيّة الهجرة على التخلص منه .

ولقد كان للتحليل الاقتصادى للتاريخ والنشاط الإنسانى والحضارات بريقه يوم أن كان للشيوعية إمبراطورية ذات توابع ، وكان

كثير من حكومات العالم الثالث ، بمافيها عدد غير قليل من حكومات الأمم الإسلامية ، يرى فى الاتحاد السوفيتى الأم الرءوم التى تأخذهم فى أحضانها لترضعهم لبن العطف والمرحمة وتحميهم من غوائل الاستعمار الرأسمالى .

بيد أن الغريب أن عددا غير صغير من هؤلاء الماركسيين أو الآخذين بوجهات النظر الماركسية من ذوى الأصول الإسلامية كانوا يجدون ملجأهم وراحة نفوسهم فى البلاد الرأسمالية ، ويلقون فيها التشجيع ويكافأون فيها بالأموال والمناصب وغير الأموال والمناصب ، مع أن هذه البلاد نفسها ، رغم مافيها من ديمقراطية ، لاتشجع أبناءها من الماركسيين أو المتعاطفين مع الماركسية وحكوماتها . والمعنى فى بطن الشاعر !

على أية حال ، فقد انهارت الإمبراطورية الشيوعية ، وثارت الشعوب التى كانت خاضعة لها على قيودها وبطشها وسجونها واستبدادها الخانق للحرية والمزهق للأرواح . ولم تعد للتحليلات الماركسية الجاذبية التى كانت لها قبلا . فهل نطمع فى أن يعيد المؤلف حساباته ويراجع أفكاره ، وبالذات بعد أن انكشف عوارها

وسخفها ومافيها من عبث وضيق أفق والتواء ، بعد التحليل الذى قمنا به هنا ؟

إن المؤلف يعتذر فى صدر الجزء الثانى من كتابه لزوجته وابنه على ماوقع منه أثناء تأليفه الكتاب من تصرفات غريبة الأطوار . فهل نطمع منه أن يعتذر للرسول وللإسلام عن أفكاره وآرائه وتحليلاته التى لاشك أنها أمعن فى غرابة الأطوار وأوغل ؟ جميل منه أن يعتذر لأهل بيته ، ولكن أليس محمد عليه الصلاة والسلام أولى بالاعتذار لما افتأت عليه وافترى افتراء داحضا مبينا ، زاعما أنه لم يكن إلا صاحب عبقرية تجارية وأنه لم يأت بشىء آخر غير ماجاء به جده هاشم التاجر ؟

أحيانا مايقول الإنسان لنفسه إن أمثال المؤلف إنما يختارون طريقهم عن وعى وسبق إصرار . ولكن من يدرى ؟ إن فى النفس الإنسانية زوايا وخفايا مجهولة ، فقد يكون كامنا فى إحدى هذه الزوايا والخفايا سرّ ، الله وحده هو العليم به ، يغير كل شىء . من يدرى ؟ وإن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وهو تعالى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء !

وأخيرا فإن عنوان كتاب المؤلف هو « التاريخ الإسلامى - تفسير جديد » ، مع أن المؤلف نفسه يقرر فى أحد هوامش الصفحة الثانية من الأصل الإنجليزى أنه مع شىء من التحوير فإن تفسيرات كِسْتَرْ للظواهر التى بقيت حتى الآن بلا تفسير وكذلك رجوعه في كل شىء إلى المراجع المعتمدة يشكلان الأساس لذلك التفسير الذى يقدمه فى هذا الكتاب . أى أن المؤلف يعترف بأنه لم يأت بجديد ، وإنما أخذ تفسيره مع شىء من التحوير من كِسْتَر . وهو تناقض يضاف إلى غيره من التناقضات والثقوب التى يعج ويفيض بها كتابه والتى أوردنا عددا غير قليل منها في الدراسة التى بين يدى القارىء .

فهذا ما عن لنا أن نقوله . ونلقى الآن القلم ، تاركين الحكم بعد ذلك لعقول القراء وضمائرهم . والله ولىّ الحق ، وهو يهدى السبيل .